سلسلة دراسات إسلامية معاصرة
13
الجنس
أنور الجندي
منشورات المكتبة العصرية
صيدا – بيروت

###53### الجنس

علت صيحة "الجنس" في السنوات الأخيرة، وحاولت أن تأخذ حجمًا أكبر من حجمها الطبيعي في مجال الثقافة، والصحافة والسينما والمسرح، ولم يكن ذلك ناتجًا عن وجود مشكلة أساسية بقدر ما كان نقلا عن أجواء أخرى، وبيئات مغايرة، وظروف غير طبيعية.

ذلك أن الجنس في نطاق الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية، لا يشكل ظاهرة خاصة منفصلة عن الحياة الاجتماعية، وليست له أزمة معينة فرضتها عوامل قديمة، تغيرت من النقيض إلى النقيض.

ذلك لأن الإسلام بطبيعته يلتمس فطرة الإنسان ويعترف برغائبه، ويفتح له الطريق إلى تحقيق الصلة بين الرجل والمرأة على أحسن أسلوب وأسمى طريق.

###54### ومن ثم فلا تقوم في المجتمع الإسلامي حالة من حالات التحدي التي تدعو إلى الصراع النفسي بالمنع، أو الكبت أو احتقار الصلة الطبيعية القائمة بين الرجل والمرأة على النحو الذي شهدته بيئات الغرب، والتي كانت مصدر الدعوة الصارخة إلى إطلاق الجنس، وتحرير وسائله وأسبابه.

ذلك أن الأزمة التي عرفتها أوروبا والتي جاءت من تفسيرات قدمت للدين على أنه دعوة إلى مطالبة البشر بأن يزهدوا في رغائد الجسد، وأن يكبتوا النوازع الفطرية إعلاءً للروح وسموًا بها، وبذلك علت الدعوة إلى إنكار الصلة الطبيعية مع المرأة، ووصفت المرأة بأنها شيطان مريد، واعتزل الناس الحياة على الجبال والأكنان في اقتناع بأن هذا، هو الطريق الصحيح إلى مرضاة الله.

ولقد كان لهذا المفهوم أثره البعيد المدى على النفس الإنسانية، والحياة الاجتماعية جميعًا، فقد عاشت النفس الإنسانية حياة مريرة، تمزقها المحاولة التي تعمل على العزلة عن الحياة بقهر النوازع الفطرية بحجة أن هذه النوازع دنس يجب أن يتطهر منه الأتقياء.

وبذلك أوشكت الحياة أن تتعطل، فقد انصرف الناس إلى الأديرة، وهجروا السعي في الأرض؛ ولم يكن ذلك إلا ###55### فهمًا باطلا لدعوة الدين في إعلاء القيم الروحية والنفسية دون الحرمان من الاستجابة للرغبات والنوازع الفطرية.

ومن هذا الانحراف الشديد الذي استمر مسيطرًا على الحياة الاجتماعية في الغرب قرونًا طويلة، تولدت الدعوة إلى الانطلاق والتحرر وإعلاء الجنس انطلاقًا من القاعدة التي تقول: إن كل فعل، له رد فعل مساوٍ له في القيمة، مختلف عنه في النتيجة.

وهكذا انتقلت أوروبا من النقيض إلى النقيض؛ وجاء فرويد فدعا إلى إعلاء الجنس وإطلاق الجنس، وحمل راية التهديد والوعيد بالمرض والعصاب لكل من يعترض على دعوته، وبذلك انفتح الباب واسعًا أمام الفكر الغربي والمجتمع الغربي إلى معارضة النظرة القديمة وحربها دون هوادة على أسلوب حاد عنيف، لا يلتمس الاعتدال أو التوسط أو النظرة الموضوعية، ولكنه يجري في اندفاع خطير، فيدمر كل شيء.

ولقد كانت نتيجة هذا التحول خطيرة وبالغة الأثر، وقد ظهرت آثارها سريعًا، فقد هدمت القيم الروحية والنفسية والأخلاقية؛ وفكت القيود والضوابط،

ودفعت الناس دفعًا إلى الفاحشة والتحلل والإباحية على نحو، كان له آثاره الخطيرة ###56### في هذه الأزمة التي يمر بها الإنسان الغربي والمجتمع الغربي نتيجة التمزق والشك والصراع والاندفاع الجنوني نحو إرضاء الغرائز دون تقدير لأي نتائج تتعلق بكيان الإنسان نفسه أو بالمجتمع الذي يعيش فيه.
2- أما الإسلام، فقد نظر إلى الجنس نظرة الفطرة، وحرره من معتقدات الرهبنة والرياضيات القاسية، كما حماه من أخطار التحلل والتدمير، وأعلن أن الرغبات من طبيعة الإنسان التي لا سبيل إلى الوقوف في وجهها؛ وإن كنا من المقدور ضبطها وتعديل مسارها وتخفيف أخطارها وتذليلها لتؤدي الغاية منها دون إسراف أو فساد أو تجميد، ومن هنا وضع لها ضوابط من الحلال والاعتدال والعفة.
كذلك فإن الإسلام كشف عن مهمة الجنس ودوره؛ وكيف أنه جزء من مهمة كبرى للإنسان، وليس الغاية الكبرى في حياته، وأنه وسيلة إلى بناء الأسرة وإنشاء الجماعة، وتوالي حركة المجتمع ونموه ليحقق إرادة الله الكبرى في تعمير الأرض، وليس الجنس هو غاية الحياة كما تقول الفلسفات الغربية، وليس هو أكبر أهدافها.
ومن هنا فقد عجزت قضية الجنس التي هي نبت غربي خالص أن تجد مجالا في محيط الإسلام لأنها لم توجد أصلا، ###57### نظرًا لسماحة الإسلام واعترافه بالرغبات، وإباحة الاستجابة لها في إطار العقد الشرعي، وإن السر في انطلاق هذه الظاهرة بشدة وعنف، هو انتقال الغرب من القسر الشديد إلى الإطلاق الشديد، أما الإسلام، فقد أعلن منذ يومه الأول وجود الرغبات في كيان الإنسان من مال وطعام وجنس، ولكنه وضعها في إطارها الصحيح، ولم يجعل الطعام قضية أولية، ولكنه نظر إلى الحياة نظرة متكاملة في عناصرها؛ متوائمة في رغباتها وحدودها متوازنة تهب النفس الإنسانية السكينة والطمأنينة وشفاء القلوب وقضاء الحاجات بعيدًا عن السرف والزهادة والكبت وبعيدًا عن التحلل والانطلاق.
ومفهوم الإسلام في الغرائز والرغبات يقوم على تحقيقها في حال القدرة، وفي حدود قواعد الزواج، ويقوم على التسامي والإعلاء في حال عدم القدرة دون أن يفقد ذلك الإعلاء هذه الرغبات حقها المعترف به في حالة الاستطاعة.
كذلك أقام الإسلام إلى جانب ذلك نظام الطهارة الجسدية والنفسية، وأباح المصادر الشريفة للمال والطعام والجنس، كما أباح ظروف الاضطرار، وعفا عنها.
والإسلام لا يفتح الباب أما الكبت، بل يزيله قبل أن ###58### يحدث، ولا يترك فرصة مهيأة لحدوثه؛ فهو يعترف بالرغبات، ويقرر إقامة الحدود التي تحفظ النفس البشرية من الانهيار في نفس الوقت، هذه الحدود تنظم مدى القيام بالنشاط الحيوي، وتحدد له ميادين معينة، يكون فيها مأمون العاقبة دون أن تحرم الإنسان من الإحساس به والرغبة فيه؛ ودون أن تحول بينه وبين حقه في أنه مباح له، مسموح به؛ وليس في مزاولته أي نوع من الحجر، حلالا ليس حرامًا؛ بل وهناك ترغيب فيه ودعوة إليه حتى لا يوضع في غير مكانه، كل ذلك شريطة أن يتم في إطاره الشرعي ومع ضوابطه.

ومن هنا فإن النفس الإنسانية عند المسلم، هي دائمًا مستريحة راضية مطمئنة إلى أن الطريق إلى الغابة مفتوحة وشرعية ومأجور عليها صاحبها، أما أمر الوسائل، فهو شأن من يسرع بسرعة القادرين أو يتأخر حتى الله له:
«وليستعفف الذين لا يجدون نكاحًا حتى يغنيهم الله من فضله» [النور: 33].
ومعنى هذا أن الإسلام يحول دون الكبت لأنه يعترف بالواقع البشري، ويضع الضوابط في حالة التنفيذ.
3- إن من أعظم معطيات الإسلام هو أنه ضبط الرغبة، ولم يحقق لها الإباحة الكاملة. ذلك لأنه لا يريد أن ###59### يظن الإنسان أن هذه الرغبة هي غايته الكبرى، أو أن يدمر كيانه الخاص من جراء الإسراف في مزاولتها، فجاءت تلك القيود ضرورة ملحة لازمة لحفظ كيان الفرد ذاته، وحماية المجتمع نفسه، ودفع الإنسان إلى الأمام إلى الغايات الكبرى التي هو مؤهل لها في تعمير الأرض وتحقيق إرادة الله في تنفيذ النظام الرباني بالعدل والإخاء والبر والرحمة، وتلك هي رسالته الكبرى، وليست الرغبة الحسية العاجلة.
ولقد حفظ التاريخ عشرات المواقف التي انهارت فيها الأمم نتيجة التحلل والانهيار الخلقي.
وفي السنوات الأخيرة خلال الحرب العالمية انهارت أمم تحت أول ضربة من خصومها، وأعلن قادتها أن مصدر ذلك هو التحلل الخلقي.
فالإسلام يعمل على حفظ أمته من هذا الخطر.
كذلك فإن القول بأن إطلاق الحرية في الرغبات يزيد المتعة أو يعطي النفس حال الاكتفاء؛ هذا القول مردود بالتجربة والدراسة، فإن اللذات لا تنتهي ولا تشبع منها النفس، ولا يحس صاحبها أبدًا بالاكتفاء، فينصرف عنها، سواء أكان ذلك في مجال الطعام أو مجال الجنس.
وإنما تنشأ من الإسراف طبيعة نهمة مسرفة من شأنها أن ###60### تهدم الجسد الإنساني، ومن أجل هذا دعا الإسلام إلى التوسط والاعتدال: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا» [الأعراف: 31] ودعا إلى حماية البدن (إن لبدنك عليك حقًا).
فالنظرية التي تقول: بأن إطلاق الحرية يؤدي إلى أن يفرغ الإنسان من ضغط الغرائز على أعصابه، يمكن أن تحقق بالمنهج المعتدل الذي شرعه الإسلام في أمر الجنس والطعام وغيره، وذلك بالتوسط وعلى فترات منظمة؛ أما إطلاق اللذات إطلاقًا كاملا، فإنه لا يؤدي إلى الغاية المرجوة؛ بل إنه يزيد الشهوات اشتعالا "إن الطعام يقوي شهوة النهم" فالإسلام لا يقبل هذا النهج؛ ولا يسمح بالانطلاق الذي لا تحده ضوابط أو حدود، ذلك لعجز الجسد نفسه عن احتمال الجهد الدائم، مهما تقوي بالطعام أو بغيره.
ومن شأن كل شهوة يباح لها التفريغ الدائم الذي يؤدي بدوره على الظمأ الدائم: أن تفسد العقل، وتذهب الصواب، وتجعله عرضة للهبوط والانحلال، ومن هنا كانت الضوابط والحدود عاملا هامًا في ضبط كيان الفرد ومصلحة الجماعة.
والقيد المفروض على الشهوة الجنسية، هو قيد لصالح المجتمع حماية له من اختلاط الأنساب وتفكك الأسرة ###61### واضطراب عواطف الناس، وهو في نفس الوقت حماية للفرد ذاته من الاضطراب النفسي.

ومن شأن هذا التنظيم أن يقيم العلاقة الطيبة بين الفرد والمجتمع.
ولما كانت شهوة الجنس ليست غاية في ذاتها، وإنما هي عامل بقاء النسل واستمراره، فقد وضعت في حجمها الطبيعي حتى لا تفسد الرسالة الأساسية للإنسان، ولا الهدف الصحيح له، وحتى يظل الكيان الإنساني محتفظًا بقدرته وقوته فترة طويلة سليمًا قادرًا على النسل لحفظ النوع في الأرض.
4- وليست نظرية فرويد في الجنس وإطلاقه مما يقبله علماء النفس والطب على علاته، بل هو قول مردود في نظر أصحاب التجارب.
ومن ذلك ما يقول الدكتور لويس بنس الطبيب النفسي: إن الدافع الجنسي لدى الفرد دافع غريزي فطري، ولهذا فهو شأن كل الدوافع الفطرية، يحاول أن يعبر عن نفسه، ويطالب بالإشباع، وفي المحاولة الدائمة لاستمرار البقاء تدفع الحياة الأفراد إلى أن يتناسلوا، ولن يتم التناسل إلا عن طريق الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث.
إن الدوافع الغريزية الجنسية دوافع غريزية، تحاول أن ###62### تعبر عن نفسها، ولكن هذا لا يعني أبدًا أن عدم الإشباع أو على الأصح وضع هذا الإشباع في المقام الأول من حياتنا يؤدي إلى دمار البشرية.
والواقع أن هناك ثمة رجالا ونساءً، أفلحوا في تجنب الجنس والحياة بدونه نهائيًا، وهناك آلاف النساء لم يتزوجن لأنهن لم يقعن في الحب، أو لأن فرصة الزواج لم تتح لهن، والقول نفسه يسري على رجال كثيرين، لم يتزوجوا أيضًا. ومعنى ذلك أن التعبير عن الجنس ليس ضرورة مطلقة، وليس هناك ثمة ضرر جسمي أو عقلي ينتج عن الامتناع عن الجنس.
ويقول: وقد سألتني إحدى السيدان: هل الجنس ضروري لكي يتم للإنسان اتزانه العقلي؟ قلت: - وأنا أعني كل حرف مما أقول -: بالطبع لا، إن كل ما سمعته من أن السعادة ليست ممكنة فقط بالزواج، فهناك رجال ونساء عاشوا سعداء دون أن يمارسوا الجنس.
ودعوني أكرر مرة أخرى أن الجنس في أصله مسألة عقلية قبل كل شيء، وبالرغم من أن الدافع الجنسي غريزي فينا، وغالبًا ما يطلب الإشباع إلا أنه في معظمه ينشأ في عقولنا قبل كل شيء، والتفكير هو الذي يدفع الجسم إلى الفعل.
ورغم أن أغلب أجزاء المثير الجنسي تتكون بتأثير العالم ###63### الخارجي إلا أن العقل يلعب في ذلك دورًا كبيرًا يفوق في أغلب الأحيان الدور الذي يلعبه المثير الأجنبي؛ وبعبارة أخرى: إن ما تتخيله عقولنا عن الجنس يكون أشهر إثارة من الجنس في واقعه الموضوعي الخارجي.
من ثم نستطيع أن نقول: إن الكتب الجنسية وأفلام السينما والنكات الخارجية، وما إلى ذلك هي المسؤول الأول عن إثارة الحيوان الكامن في أعماقنا، وليس الجنس في حد ذاته. إن التخيل، وهو من نتاج الذهن يلعب الدور الرئيسي بالنسبة لدوافع الإنسان الجنسية؛ وما أكثر الصور المجموعة غير الواقعة التي يقدمها لنا، وعلاج الجنس هو الزواج أو الكظم الذي لن يضر شيئًا.
ولا ريب أن هذه وجهة نظر أخرى، تختلف مع مفهوم الإسلام في بعض النقاط، ولكنها تعارض ما ذهب إليه فرويد.

ويصور ليوبولدفايس "محمد أسد" مفهوم الإسلام بالنسبة إلى الجسد والجنس بالنسبة إلى مفاهيم الأديان والمذاهب والنظريات الغربية فيقول: "يعتبر الإسلام من دون الأديان السامية جميعًا روح الإنسان ناحية واحدة من شخصيته، وليست ظاهرة مستقلة، ###64### وبالتالي فإن نمو الإنسان الروحي في نظر الإسلام مرتبط ارتباطًا لا ينفصم بجميع نواحي طبيعته الأخرى، إن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته، فهي ليست نتيجة أي خطيئة أولى، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الإسلام، بل هي قوى إيجابية، وهبها الله للإنسان، فيجب أن يتقبلها ويفيد منها بحكمه على أنها كذلك.

ومن هنا فإن مشكلة الإنسان ليست في: كيف يكبت مطالب جسمه؟ بل كيف يوفق بينهما وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة؟".

5- هل علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة جنس؟

هذا ما تحاول النظرية النفسية والاجتماعية الغربية أن تصوره، لتجهل هذه العلاقة قاصرة على الغريزة، وبذلك تنهدم كل الروابط الروحية والنفسية والاجتماعية بين الرجل والمرأة التي هي دعامة قيام الأسرة. ولا ريب أن هذه المحاولة إنما ترمي إلى هدم الكيان الاجتماعي كله بالعمل على تغيير التركيب الفكري للجنس البشري، وبإضعاف العوامل الأساسية لقيام الأسرة؛ وهي محاولة لم تتوقف على مدى التاريخ من جانب القوى الهدامة، ولكنها لم تحقق شيئًا، وكان مصيرها دائمًا الهزيمة والانحدار لأنها ضد طبيعة الأشياء ومعارضة للفطرة.

###65### إن نظرة الإسلام